كلية العلوم الإسلامية

قسم العقيدة والدعوة والفكر **المحاضرة الرابعة**

مدرس المادة: أ.م.د. أيسر فائق جهاد

المرحلة : الأولى الكورس الأول

المادة: التصوف والأخلاق

عنوان المحاضرة (مصادر التصوف وبيان الفرق بين العابد والزاهد والعارف)

المصادر: حقائق عن التصوف : الشيخ عبد القادر عيسى

الرسالة القشيرية: الإمام أبو القاسم القشيري ومصادر أخرى في التصوف والسلوك

أولاً: مصادر التصوف

لقد اعتنى الكثير من المستشرقين بدراسة التصوف ومصادره لكنهم أخطأوا إذ ردوا التصوف إلى مصادر أجنبية ولا يخفى على عاقل نوايا المستشرقين حول الإسلام وتشويه معالمه فحينما وجدوا في التصوف روح الإسلام حاولوا أن يطعنوا بالدين بأن يتهموا التصوف أن مصادره أجنبية فارسية وهندية بوذية ونصرانية وغير ذلك ليضعوا في عقول الناس فكرة عدم إسلامية التصوف وأنه يستمد منهجه من هذه الديانات، والحقيقة التي لا شك فيها أن التصوف السني الإسلامي مصادره إسلامية إذ يمثله غالبية صوفية الإسلام، فهو إسلامي النشأة والتطور، ونظريات بعض المستشرقين في مصدره لم تكن صحيحة ومنصفة لذا لا نعول على آراء المستشرقين ويأخذ بنا الكلام باعاً طويلاً ولا يسمن ولا يغني ويبعدنا عن ما هو أهم في بيان مصادر التصوف الأصيلة الإسلامية التي تثبت بطلان ما ذهب إليه هؤلاء.

<u>فمن أهم مصادر التصوف هو:</u>

١- **القرآن الكريم:** وهو المصدر الأول الذي استمد الصوفية منه آراؤهم في الأخلاق والسلوك ورياضاتهم العملية التي اصطنعوها من أجل تحقيق هدفهم من الحياة الصوفية، وقد بين الطوسي رحمه الله في كتابه اللُمع: أن للصوفية تخصيصاً بمكارم الأخلاق والبحث عن معاني

الأحوال وفضائل الأعمال اقتداءً بالنبي ﷺ وصحابته الكرام ومن تبعهم، وهذا كله موجود في كتاب الله تعالى.

والصوفية الكرام على اختلافهم يتصورون طريقاً للسلوك إلى الله تعالى يبدأ بمجاهدة النفس أخلاقياً ويتدرج السالك له في مراحل متعددة تعرف بالأحوال والمقامات التي تنتهي بالسالك إلى المعرفة بالله تعالى، وجميع مقامات التصوف وأحواله التي هي موضوع التصوف أساساً مستندةً إلى شواهد من القرآن الكريم، فمثلاً مجاهدة النفس التي هي بداية الطريق إلى الله تعالى تستند إلى آيات من القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا** ﴾، وكذلك قوله تعالى: ﴿ **وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى** ﴾، وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي** ﴾. وكذلك التقوى لها شواهد من القرآن وكذلك الزهد والتوكل والشكر والصبر والرضا والحياء والمحبة وغيرها كلها لها شواهد من القرآن الكريم.

وكذلك الأحوال كالخوف مثلاً له مستند وشواهد من القرآن كقوله تعالى: ﴿ **يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً** ﴾، وكذلك حال الرجاء يستند إلى قوله تعالى: ﴿ **مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ** ﴾، وهكذا الأحوال كلها ويطول بنا المقام إذا أردنا أن نذكر كل معنى من المعاني النفسية والأخلاقية التي يعبر عنها الصوفية بالأحوال والمقامات ونذكر معها شاهدها من القرآن الكريم، فالذي ذكرناه يبين لنا بوضوح أن البذور الأولى للتصوف موجودة في القرآن الكريم، ومن هنا يكون التصوف من حيث نشأته الأولى آخذاً من القرآن الكريم.

٢- **حياة النبي ﷺ التعبدية:** فكما كان القرآن الكريم منبعاً استقى منه السادة الصوفية تصوفهم، كذلك حياة النبي ﷺ وأخلاقه وأقواله هي مصدر آخر من مصادر التصوف، وقد أخذ السادة الصوفية من حياة رسول الله ﷺ قبل البعثة وبعدها منهجاً لهم في سيرهم وسلوكهم، فأن حياة النبي ﷺ التعبدية قبل البعثة في غار حراء بما فيها من تحنث وتقلل من المأكل والمشرب، وتأمل في الكون، كانت صورة أولى للحياة التي سيحياها فيما بعد الزهاد والصوفية والتي اخضعوا أنفسهم فيها لضروب من الرياضات والمجاهدات والأحوال التي هي ثمرة الخلوة، وقد أشار الإمام الغزالي رحمه الله إلى استناد الصوفية في هذا المسلك إلى عزلة النبي ﷺ فقال: ((الفائدة الأولى للعزلة التفرغ للعبادة والفكر والإستئناس بمناجاة الله تعالى عن مناجاة الخلق

والاشتغال باستكشاف أسرار الله تعالى في أمر الدنيا والآخرة وملكوت السماوات والأرض، فإن ذلك يستدعي فراغاً ولا فراغ مع المخالطة، فالعزلة وسيلة إليه)).

أما حياة النبي ﷺ بعد البعثة ونزول الوحي فكانت أيضاً متصفة بالزهد والتقلل في المأكل والمشرب حافلة بالمعاني الروحية التي وجد فيها الصوفية منبعاً فياضاً لهم. ولا يمكننا أن نتقصى جميع أخلاقه عليه الصلاة والسلام التي اكتسب بها حب أصحابه له وثناء أعداءه له فهو عليه الصلاة والسلام أعظم شخصية ربانية وأعظم قائد يشهد له بذلك حتى أعداء الإسلام، فكان المثل الأعلى للمسلمين وأسوتهم الحسنة بما فيهم الصوفية، فتصوف الصوفية وما ينطوي عليه من النزعات الزهدية والمعاني الأخلاقية وما يترتب عليها من ثمرات روحية قد وجد مادته الأولى في حياة رسول الله ﷺ وأخلاقه وأقواله.

٣- **حياة الصحابة الكرام وأقوالهم:** كانت حياة الصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم أجمعين وأقوالهم منبعاً آخر استقى منه السادة الصوفية، لأن حياتهم وأقوالهم حافلة بالشيء الكثير من الزهد والورع والتقشف والإقبال على الله تعالى.

ولا يستطيع باحث منصف في تاريخ التصوف الإسلامي أن يغفل ما انطوت عليه حياة الصحابة وأقوالهم من المنازع الروحية والأذواق القلبية، وذلك حينما يريد التعرف على الأسس التي قامت عليها حياة الصوفية الروحية.

لقد كان الصحابة في الحقيقة مقتدين بالنبي ﷺ في جميع أحواله وأقواله، وقد امتدحهم سبحانه في قوله: ﴿ **الأَوَّلُونَ مِنَ المُهاجِرينَ والأنصار وَالَّذينَ اتَّبَعُوهُم بِإحسانٍ رَضِيَ الله عَنهُم وَرَضوا عَنهُ** ﴾، وأشار رسول الله ﷺ إلى علو منزلتهم ووجوب الإقتداء بهم بقوله: **(أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم)**، ومن هنا نظر السادة الصوفية إلى الصحابة الكرام على أنهم قدوة في جميع معانيهم الظاهرة والباطنة.

ونذكر هنا بعضاً مما روي عن الصحابة من الأقوال والأحوال التي جعلها السادة الصوفية مصدراً روحياً لهم، ولا نستطيع أن نذكر كل ما روي عنهم لكثرتها وتجنباً للإطالة لذا سنذكر بعضاً منها للدلالة على ما نحن بصدده، فما روي عن أحوال الصحابة إجمالاً قول أبي عتبة الحلواني: ((ألا أخبركم عن حال كان عليها أصحاب رسول الله ﷺ ، أولها: لقاء الله تعالى، كان

أحب إليهم من الحياة. والثانية: كانوا لا يخافون عدواً قلّوا أو كثروا. والثالثة: لم يكونوا يخافون عوزاً من الدنيا، وكانوا واثقين برزق الله تعالى)).

وكان سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ زاهداً حتى ليروى عنه أنه كان يطوي ستة أيام، وكان لا يزيد على ثوب واحد، وكان يقول: ((إذا دخل العبد العجب بشيء من زينة الدنيا مقته الله حتى يفارق تلك الزينة)). وتحدث ﷺ عن التقوى واليقين والتواضع فقال: ((وجدنا الكرم في التقوى، والغنى في اليقين، والشرف في التواضع)).

وكان أيضاً سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ صافي النفس طاهر القلب حتى قال عنه رسول الله ﷺ : **(إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه)**، وكان ﷺ متقشفاً حتى ليروى عنه أنه كان يخطب وهو خليفة وعليه قميص فيه إثنا عشر رقعة.

وأما سيدنا عثمان بن عفان ﷺ فكان قدوة أيضاً لأهل التصوف في أمور كثيرة، ففي مجاهدة النفس يروى عنه أنه حمل حزمة حطب من بعض بساتينه وكان له عدة مماليك فقيل له: لو دفعتها إلى بعض عبيدك؟ فقال: إني قد استطعت أن أفعل ذلك، فدل ذلك على أنه كان لا يدع مجاهدة النفس فلا يسكن إلى ما جمع من الأموال، لأنه ليس في ذلك كغيره. ويروى عن زهده مع كثرة ماله أن الإنفاق كان أحب إليه من الإمساك، فهو من جهز جيش العسرة واشترى بئر رومة من يهودي كان يمنع المسلمين عنها.

وروي عنه أيضاً أقوالاً لها دلالة صوفية منها قوله: ((وجدت الخير مجموعاً في أربعة: أولها: التحبب إلى الله تعالى، والثاني: الصبر على أحكام الله تعالى، والثالث: الرضا بتقدير الله ﷻ، والرابع: الحياء من نظر الله ﷻ))، فكأنه يتحدث عن مقامات أربعة من مقامات السلوك وهي: (المحبة، والصبر، والرضا، والحياء).

أما سيدنا علي بن أبي طالب ﷺ فله أيضاً عند الصوفية منزلة خاصة رفيعة يقول الطوسي رحمه الله: ((ولأمير المؤمنين علي ﷺ خصوصية من بين أصحاب رسول الله ﷺ بمعاني جليلة وإشارات لطيفة وألفاظ مفردة وعبارة وبيان للتوحيد والمعرفة والإيمان والعلم وغير ذلك وخصال شريفة تعلَّقَ وتخلَّقَ بها أهل الحقائق من الصوفية)).

وقال الطوسي أيضاً : ((ولعلي ﷺ أشباه ذلك كثير من الأحوال والأخلاق والأفعال التي يتعلق بها أرباب القلوب وأهل الإشارات وأهل المواجيد من الصوفية)).

وهكذا بقية صحابة رسول الله ﷺ ، كمعاذ بن جبل، وعمران بن حصين، وأبي هريرة، وسلمان الفارسي، ، وأبا ذر الغفاري، وأنس بن مالك والصحابة أجمع كانت حياتهم التعبدية مصدراً استقى منه صوفية الإسلام الذين جاؤوا فيما بعد.

ثانياً: الفرق بين العابد والزاهد والعارف

الزهد لغةً: ترك الشيء أو الميلِ إليه.

واصطلاحاً عند الصوفية: هو بغض الدنيا والإعراض عنها، وقيل: إن الزهد ترك راحة الدنيا طلباً لراحة الآخرة، وقيل: أن يخلو قلبك مما خلت منه يدك، ومنه جاء مصطلح الزاهد أي المعرض عن متاع الدنيا ولذاتها.

وهناك من فرق بين الصوفي والزاهد والعابد، فيذكر ابن سينا: أن المُعْرِض عن متاع الدنيا وطيباتها يخص باسم الزاهد، والمواظب على فعل العبادات من القيام والصيام ونحوهما يسمى العابد، والمنصرف بفكره إلى الله مستديماً لشروق نور الحق في سره يخص باسم العارف.
والعارف عنده هو الصوفي. ومن هنا فقد فرق بين الزاهد والصوفي. الزاهد من يزهد في الدنيا، والصوفي يزهد في كل ما يبعده عن الله، الزاهد يحرم نفسه من متاع الدنيا، والصوفي لا يحرم نفسه من متاع الدنيا إلا إذا حجبته عن الله، الزاهد غايته دخول الجنة، والصوفي غايته معرفة الله، الزاهد لابد أن يملك حتى يزهد فيه، والصوفي لا يشترط أن يملك شيئاً حتى يزهد فيه، وعلى ذلك فإن الزهد بالمفهوم الصوفي أن تكون الدنيا في يده لا في قلبه. ومن ذلك نرى أن كل صوفي زاهد، وليس كل زاهد صوفياً.